اللغة الإنسانيّة بين النظرية والتطبيق

أ . أحمد عبد الرحيم السايح

اللغة الانسانية ظاهرة اجتماعية ، اقتضتها حياة بنى الانسان ، لأن الله تعالى خلق هذا النوع أضعف قوة من كثير من أنواع الحيوانات الأخرى ، التى تعيش معه على الأرض .. ولكن الله تعالى عوض الانسان عن قوة الجسم ، والسلاح ، قوة العقل . ومنحه الاستعداد للتفاهم وكلكلام .

فدعا بعض أفراد الإنسان بعضاً للتفاهم وكلتعاون ، على اتقاء عادية الحيوان ، وعلى جلب المنافع ، وتحصيل المرافق .. واضطره ذلك إلى سكنى المدن ، وإنشاء المجتمعات .. ولذلك قال فلاسفة علم الاجتماع :

« الإنسان مدنى بطبعه » . وهذه العبكرة تفيد فى مضمونها : أن الإنسان مضطر إلى سكنى المدن وإنشاء المجتمعات ، ليتم فيها التعاون والتبادل ، والقدرة على استغلال ما أعد الله له فى هذه الحياة من المقومات ..

وكانت اللغة هى الأداة التى تكشف لبعض الأفركد عما فى نفوس الآخرين . وقد كان التفاهم الإنسانى فى أول الأمر بالاشارات التى لا يزال بعضها فى لغة بعض الجماعات البدائية ، والتى تظهر فى الطفل ، قبل أن يتعلم الكلام ثم حصل التفاهم بالأصوات التى تألفت منها الكلمات فى اللغات المختلفة .

فاللغات أصلاً أصوكت . وليست كلمات . الكلمة صوت يرمز إلى معنى ، وكتابة الكلمة رسم يرمز إلى هذا الصوت . والصوت هو الأصل . والصوت يصنعه الهواء ، يخرج من رئة الانسان ، وتقوم الحنجرة ، ويقوم اللسان ، ويقوم الفم وحتى الأنف ، بإعطائه شكلاً خاصاً ، ووضعا متميزكً ، هو : الكلمة المسموعة .

إذًا فالكلمات أشكال ، آلاف لأصوات ، آلاف هى الكلام . واللغة فى اللغة : فعلة ، من « لغوت » أى تكلمت .. وأصلها : لغة ، ككرَةَ ، وقُلة وثُبة . كأنها من مقلوب ثاب يثوب .

وقالوا فيها : لغات ، ولُغون .. ككُرات وكُرُون .. وقيل : منها لغى يلغى إذا هذى قال العربى : -

ورب أسرابِ حجيج كُظَّم   عن اللَّغا ورفَث التكلم

وكذلك اللغو . واللغو واللغا كفتى . واللغوى : السقط ، وما لا يمتد به من الكلام وغيره (٢) .

وقوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو » (٣) أى ما لا عقد عليه . مثل ما يجرى فى المخاطبات : لا والله ، وبلى والله ، وأى والله ، من غير قصد ولا عقد قلب عليه ، ومن هذا أخذ الشاعر :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله   إذا لم تعدَّ عاقدات العزائم (٤)

وقيل : « لا يؤاخذكم الله باللغو » (٣) أى بالأثم فى الحلف إذا حلفتم (٥) وقال تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً » (٦) أى قبيحاً من الكلام .. وقوله تعالى « وإذا مروا باللغو مروا كراما » (٧) أى كفوا عن القبيح ولم يصرحوا به ، وقيل معناه : إذا صادفوا أهل اللغو لم يخوضوا معهم (٨)

واللغة فى اصطلاح أهل اللغة : « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » وهذا التعريف يشمل معناها الخاص ، أما معناها العام ، فهو مجموعة الوسائل المعبر بها عن المعانى ، والدالة على نفس تلك المعانى لدى الآخرين سواء كانت تلك الوسائل فطرية أم اصطلاحية (٩) . والكون الواسع يزخر بالأسرار التى يحاول الانسان منذ وجد على هذه الأرض أن يكشفها .

ولكن أقربها هى أسرار هذه الأرض التى يعيش عليها الإنسان . ولا ريب أن أهم من يدب على ظهرها هو الإنسان ، وأن اللغة هى أهم مظهر من مظاهر سلوكه (١٠) لذا حاول المفكرون - لا اللغويون فقط - على امتدادا العصور ، أن يزيحوا الستار عن كثير من الغموض الذى يكتنف اللغة البشرية ، والتى لم يستطع الانسان حتى الآن أن يتوصل إلى إزالته كله . وإن توصل إلى الإجابة عن بعض التساؤلات التى أثيرت خلال آلاف السنين من عمر البشرية على هذه الأرض . ومن هذه التساؤلات الكثيرة ما يتعلق بأصل اللغات جميعا . وهل لها أصل واحد أم عدة أصول ؟ .. وكيف بدأت ؟ .. وكيف انتشرت ؟ وكيف تغيرت ؟ .. وأى منها تنتمى الى فصيلة واحدة ؟ .. وكم عدد لغات العالم ؟ .. وكيف تتغير اللغة الواحدة عبر القرون ؟ .. سواء من حيث أصولها أم قواعدها الصرفية ؛ أم دلالات مفرداتها الصرفية ، وما هى علاقة المجتمع بهذه التغيرات ؟ .. وكيف تنشأ اللهجات ؟ .. وكيف تتوزع ؟ .. وكيف تنشأ لهجات خاصة بأقليات عرقية أو دينية أو قومية صغيرة تعيش فى مجتمع كبير ؟ ..

وهل هناك فروق بين نوعيات اللغة التى تستعملها طبقات اجتماعية معينة ؟ أو بين أنواع اللغة التى يستعملها الفرد نفسه مع أفراد آخرين تختلف علاقته بكل منهم من العلاقة الحميمة جدا إلى الجهل الكلى ..؟ ثم ما هى طبيعة اللغة ومن أى شىء تتكون ؟ ..

وما هى علاقة اللغة بالفكر وهل يمكن أن يوجد احدهما بدون الآخر ..؟ وما هى علاقة اللغة بالإنسان نفسه .. ؟ وهل هو مفطور عليها ..؟ وإذا كان الأمر كذلك . فما هى طبيعة هذه القدرة النظرية ؟ .. وكيف يمكن للطفل أن يتعلم أية لغة يسمعها بشكل مستمر .. ؟ وهل الفروق الظاهرية بين اللغات فروق أساسية أم أن وجوه الشبه الأساسية بينها أهم من تلك الاختلافات عامة من حيث تركيبها الأساسى . وهل يمكن أن نتخلص من مشكلة تعدد اللغات بأن نخترع لغة عالمية يتكلمها ويكتب بها جميع الناس أينما وجدوك ..؟ وما هى المشكلات الحالية فى الترجمة من لغة إلى أخرى وهل يمكن التوصل الى طريقة كَلية للترجمة حين تتشابه اللغات ، لنواكب سير الجديد والحديث فى دنيا الفكر والثقافة ..؟ (١١) .

لا نريد أن نستطرد فنذهب فى مثل هذه الاسئلة إلى نهايتها ؛ لأنه ربما لا توجد نهاية فعلية لها .. وإذا كان يصعب على الباحث معرفة متى وأين وكيف بدأت اللغة . إلاّ أننا لا نعدو الصواب إذا قلنا : أنها بدأت عندما تكونت أول جماعة إنسانية فى هذا الوجود .. ولا نعدو الصواب أيضا إذا قلنا : إن الجماعة الإنسانية الأولى - أياً كان طابعها - عندما تكونت صحبت معها مشكلاتها الخاصة الناتجة عن علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، والناتجة عن علاقة الانسان بالمحيط والطبيعة . وفى سبيل البحث عن حل لتلك المشكلات الجديدة من نوعها ، تولد النشاط الانسانى فى استخدام الصوت ، لتكوين ألفاظ لغوية بدائية الطابع . والإنصات لتلك الأصوات ، وما يتبع ذلك من مسلك

ذهنى لفهم مدلول الأصوات عن طريق الأذن .. تجسد هذا النشاط الإنسانى المتميز عن الكائنات الأخرى فى صيحات موسيقية توحى بمعان تختلف فى دلالتها باختلاف موسيقاها . بذلك تكون العنصر الأساسى للبيئة الثقافية الخاصة بالانسان وحده .⁽١٢⁾

فاللغة بظهورها ـ كمرحلة عليا فى مجرى التطور ـ خارزة خروجا تلقائيا من صور سبقتها للنشاط الحيوانى . كان رد فعلها الحتمى هو تحويل تلك الصور والضروب ـ التى كان السلوك الجماعى يجىء على غرارها يضيف بعدا جديدا . إلى أبعاد الخبرة الإنسانية ـ ما نطلق عليه « إنسانية الوجود » .

فالتعبير الرمزى عن الأشياء ، يحولها من أشيا" قائمة بذاتها منفصلة عن الوجود الانسانى إلى جزء من هذا الوجود .

فتسمية الساق الخشبية المنبثقة من الأرض ، والمنتهية بأفرع ووريقات خضراء بلفظ « شجرة » هو بمثابة أذابتها فى الوجود الإنسانى ، تقع تحت سيطرته . وتفقد معنى وجودها بدونه . وعلى هذا فتسمية الشىء ـ أى إطلاق لفظ لغوى عليه ـ هو الخطوة الأولى للسيطرة على وجوده ومزجه بالوجود الإنسانى ، بعد المعرفة السابقة له ، كشىء منفصل عن هذا الوجود .

والقوة فى التعبير الرمزى عن الشىء بلفظ « لغوى » عليه تكمن فى انبثاق مواضيع من هذا الرمز ، تمت للشىء المرموز به أصلاً بصلة مباشرة . وإن كان هذا لا يتم إلاّ بعد عدة مراحل من التطور اللغوى .

ومن هنا يتبين الفرق الأساى ، بين التعبير الرمزى عن الأشياء والأفعال برسمها ، والتعبير الحركى ـ الرقص ـ الذى من الصعب أن يتولد عنه شىء آخر. بخلاف اللفظ اللغوى الذى يملك تلك الإمكانية .. وليست على هذا الأساس البيئة التى يحيا فيها الإنسان ـ يعمل ويبحث « مادية » فقط ـ بل ثقافية كذلك ، فأفعال الإنسان وكيفية أدائه لها ، لا تتوقف على التكوين العضوى لجسده فقط . بل البيئة والانسان يتأثران كذلك بمؤثرات تراثه الثقافى المنبت فى التقاليد ، والنظم الاجتماعية ، والعادات والأهداف والمعتقدات ، التى تحملها الألفاظ اللغوية فى طيها ، وتوحى بها .

والمشكلات التى تبعث على التقصى والبحث إنما تنشأ من علاقات الناس بعضهم ببعض ، ولا تقتصر الأعضاء التى تختص بهذه العلاقات على العين والأذن واللسان ، بل من أدواتها كذلك ، تلك المعانى المتطورة على مر الحياة ، مضافاً إليها وسائل التكوين الثقافى ..

تحتل اللغة ـ إذن ـ فى مركب العناصر التى يتألف منها المحيط الثقافى للإنسان مكانا ذا دلالة خاصة . وهى تؤدى وظيفة ذات دلالة خاصة أيضا ، فهى فى حد ذاتها نظام ثقافى . وإن شئت بعبارة أدق فقل : ـ هى الاداة الرئيسية التى تنتقل بها سائر تلك النظم الأخرى ، والعادات المكتسبة . ـ وهى الألفاظ التى تتغلغل خلال الصور ومضوناتها فى آن واحد معاً أعنى الأنظمة الثقافية

الأخرى ومضموناتها ..

ـ وتتميز بتركيب خاص بها ، له قابلية التجريد باعتبار اللغة صورة من الصور ؛ ولهذا التركيب إذا ما تجرد فى صورة ، تأثير حاسم من الوجهة التاريخية ، وكللغة التى جاءت بهذا الوضع هى اللغةبأوسع ما أريد لها من معنى .... فاللغة بهذا المعنى المتوسع .. هى الوسيلة التى تتقمصها الثقافة فتبقى وعن طريقها تنتقل ، وهى ذلك التدوين الذى يديم بقاء الحوادث ويجعلها فى متناول النكس عامة ، لبحثها من جديد .

ومن جهة أخرى ، فإن الأفكار أو المعارف لا وجود لها إلاّ فى رموز يستحيل فهمها ، دون الرجوع إليها مرة ثانية ، وبذلك تشكل تلك الرموز نوعا من البقاء الضرورى ، لوجود الأشياء المرموز إليها ، بعد أن كانت بداية استخدامها وسيلة فقط للتعبير الرمزى عنها (١٣)

فعلاقات العالم النفسانى والعالم الخارجى ، تتجسم فى التعابير المختلفة ، توجد بوجودها ، وتنعدم بانعدامها ، إنها شرط وعلة لها .

وبما أن الموضوع والذات ـ أى المفعول والفاعل ـ يلتقيان فى الشعور الفردى ، ليتحققا ، كان لزاماً على الدراسات النفسانية أن تبدأ بالتعرف على حقيقة التعبير وأصنافه .

فاللغة فن تقنى : لأن لها نماذج وقواعد ، متفق عليها ، ولكن حقيقتها تندمج فى حقيقة تاريخية : التاريخ الفكرى ، والنفسانى ، والصناعى ، والجغراف للأمة ، أو للأمم المتكلمة بهذه اللغة ، وكلمقصود بالتاريخ هنا التاريخ الماضى طبعا ، ولكنه ماض يسترسل فى الحاضر ، بل هو ما يعبر عنه النحويون بالمضارع ، أى الحال والمستقبل : لأن ما يقوم به الانسان فى الحاضر ـ مع التأكيد بأن الحاضر لا ينحصر فى الحال ـ : إنما هو إنجازلما يريد أن يكون عليه ما بعد الحاضر ، فالمستقبل ليس مرادفا للبعيد ، كما أن الحاضر ليس منحصرا فيما قد حضر .. فحاضر ليس وصفاً لحالة ، بل إسم فاعل ، أى أنه الزمن الذى يقع فيه فعل فعليا .

فالحاضر يختلف عن الماضى ، لأن الماضى قد انتهى كحركة مباشرة ولم يبق إلاّ فى إشارة ، أو فى ذاكرة .

ويخالف أيضا المستقبل ، لأن المستقبل يصوب اتجاهه نحو الأمام ، فالمتكلم يغير اللغة ، ولكنه يخضع لأسسها ومصطلحاتها كى يفهم ، فالكلام أداة للتفاهم لا غاية فى ذاته ، إن المتكلم يرمى من وراء الكلام أن يفهم السامع أنه يريد تواصلا .

لكن خلافاً لما يمكن أن نظنه ، أن الانسان الأول ، لم يتكلم ليعبر عن مفاهيم وأفكار ، ولم يتكلم لأنه كان له شىء يجب أن يقال .. بل على العكس ، لقد فهم ، وفكر ، وأفهم .. لأنه تحدث حيث أن ما راج فى خاطره قبل أن يتكلم ، لم يكن مكيفا فى شكل أولى ، يرمى إلى قصد وأنّى له أن يقصد الافهام ، قبل أن يحصل عنده فهم هو نفسه ..

إن التفكير واللغة ، وجهان لواقع وكحد ، وأن الجد الأول للإنسان لم يعبر عما فكر فيه ، لأنه كان يفكر . بل فكر لأنه تكلم .. وهو لم يتحدث إلاّ بعد أن انتهى من الحركة ..

فللأفعال ـ أى ما يقابل الأسماء ـ الأسبقية ، والمكان الأول ، والأفعال آخر ما يضيع من الذاكرة ..

إن اللّعب وهو عمل جماعى من أول الحركات التى يقوم بها الطفل فكل لعب فى الحقيقة ملاعبة .. وأداة اللعب بالنسبة للصبي غالباً ما تكون هو من يلعب معه من أقرانه ..

فالاتصال الأولى بين الصبى وعالم الأحياء هو الثدى ، وعند الفطام تلهيه أمه أو من يرضعه بثدى لا لبن له ، أو بأشياء جامدة .

فاللعب عالم مصطنع بين الواقع وغير الواقع ، أى حركات رامزة ، يتعدى الرمز عند الطفل دور الوساطة ،ويصبح غاية فيةذاته . نعنى أن الرمز يتركز فى الشعور ، كأنه الواقع ، ويصير الواقع أجنبياً (١٤) . وأن أول أداة للتعبير اخترعها الإنسان هى الآلة مثل : العصا والحجر وهذه الأدوات ما هى إلاّ أفعال مجسمة .. فالمعمول شىء مشترك بين الإنسان والحيوان .. يقلع « الشمبانزى » غصناً من الشجرة ، ليستعمله كما يستعمل الإنسان العصا .. لكن الفرق هنا ، هو أن القرد يستعمل آلته فى الحالة الحاضرة ، فى حين أن الانسان يخلق بينه وبين الآلة صلات يملكها يقول : هى لى ، هى لك ، هى لنا ، فيدخرها ، ثم ينقحها ويطورها ومن هنا وكرد فعل لذلك تكسبه هى بدورها كلمات جديدة « أفعالا وأسماء »فهناك إذن : « دياليكتيك » للتطور الإنسانى ، فى علاقاته بالأدوات يؤثر بها ، ثم فيها ، وهى بدورها تؤثر فيه ، فالانسان يتطور بقدر ما يطور أدوات العمل .

والانسان يمتاز عن الحيوان فى علاقاته بالآلات فى كونه يستعملها ، وقد استعملها أمس ، ويستعملها الآن ، ويحتفظ بها لما بيد ، وبمجرد ما أصبحت الآلة مصاحبة للانسان ، متصلة بالتاريخ تكونت حولها ، عادات اجتماعية ، نعنى : أعرافاً تقنية تتوارثها الأجيال « صنع الآلة وكيفية استعمالها وإصلاحها » والاستعمال مجموعة عمليات تنشأ عنها نتائج يرجوها العامل لفائدة مباشرة ؛ أو للمبادلة ، أى الآلة أول واسطة بين الإنسان والعالم ، بين الإنسان والمجتمع ، فاللغة لا تنتعش إلاّ فى البيئات الغنية بالآلات ، بالأشياء المصنوعة والمكتشفة ، لأن كل لغة إنما هى أدوات حضارية وأن الجد الأول للإنسان ، قد استعمل العصا فى الصيد ، وقلد صوت الحيوان ، ثم تلفظ بمسميات للعصا وللصيد ، وللصوت ، وللطير .

فالحياة تدور حول إشباع الحاجيات ، هذا الاشبكع يدفع الى العمل وكلعمل يدفع إلى اكتشاف الآلات أو إلى صنعها ، ثم ترقيتها .

هكذا تكثر الاتصالات المجتمعية حول أعمال مشتركة ، فتتجلى مختلف التعابير من علامات ، وإشارات ، ولغات ، ورموز .

من هذا التحليل نصل إلى أصل المعرفة ـ وأصل الأحداث التاريخية وأصل المجتمع الانسانى .

وبالتالى هنك : يبدأ التفكير الفلسفى : إن الفلسفة بطبيعة وظيفتها تشتغل بمعرفة الإنسان والعالم وعلاقاتهما ، فهى تبحث فيهم ، والبحث حديث ، والحديث نقاش كلامى ، والانسان هو الحيوان الذى يتكلم ، أى يصنع العالم بالألفاظ . فتصبح كل لفظة ، إما مفتاحاً ، أو أداة مواصلة واتجاه ، وإما تحديداً لسلوك فردى أو جماعى .

فالكلمات كالأوراق النقدية ، والأسلحة أو الخاتم السحرى : يكفيه أن يُنْطق ليحدث شيئا فى شعوره ، ورد فعل فى شعور الآخرين ، ومن هذا التجاوب الشعورى ينتج صدى ، يحرك الطبيعة الخارجية ، فالكلام خلاق ، إن الكلمة الواحدة تحدث أحيانا فساداً ، وأحياناً إصلاحاً ، وإذا لم يتسبب عنها شيء محسوس عند المتكلم . ربما حصل ذلك عند المستمعين أو عند متكلم آخر .

فالكلمة : كالدرهم الذى يحتفظ بقيمته التداولية ، سواء انتقل إلى بائع ، أو إلى مشتر ؛ أو لم ينتقل « ضرب الله مثلا كمة طيبة كشجرة طيبة (١٥) .

فالبحث فى الكلمات من حيث تركيبها المادى ، ومدلولاتها المحسوسة وآثارها النفسانية : يلتقى فى ميدان واحد ، مع كل بحث يدور حول الإنسان ، وحول المعرفة

ومن هنا كان التأمل فى اللغة : فلسفة وعلماً ، وبما أن اللغة حركات ، وعلامات ، وإشارات ورموز ، اتخذتها الفلسفة ، واتخذها العلم ، أداة للتعبير ، هكذا نرى اللغة فى نفس الوقت ، مادة للبحث ، وأداة له إذ أنها تأمل ينعكس على ذاته .

واللغة ليست شيئا خاصا بفرد ، بل ملكا مشتركا ، إنها « بين » المرء وشعوره ، وبين الشعور كحالات وإحساسات ، وبين إبرازها كأحداث ، بين المعنويات والماديات ، بين الأنا والآخرين ، بين الإنسان والعالم .

اللغة هى الواسطة العظمى والصغرى ، فى الغياب والحضور ، فيما كان ، وفيما هو كائن ، وفيما سيكون .

اللغة تعبير « الأنا » ونداء للآخرين ، أى دعوة ودعاء ، فالمرء يعطى كلمة الشرف ، فيلزمه الكلام أمام نفسه وأمام المجتمع ، ويقيد سلوكه ، ويفرض عليه مسئولية ، ورجل لا كلمة له ، رجل ينقصه الضمير ، نعنى أن إنسانيته غير كاملة ، فالكلام يرتفع من حركة التعبير ، إلى مستوى العناصر « الأنطولوجية » وربما استطعنا أن نقول : الإنسان جسم ، وروح ، ولغة (١٦) .

فإذا أردنا أن نعرف أهداف اللغة المكتوبة والمتكلم بها والتى قال عنها ابن جنى فى الخصائص والجرجانى فى التعريفات : « إنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم « وجدنا أنها :

١ ـ أداة التفكير الإنسانى : فالقاموس اللغوى الذاتى ، يشكل إلى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهه .

٢ ـ نقل الأفكار والمشاعر من إنسان إلى آخر .

وهذان الهدفان ينبعثان من ذات الإنسان كوجود مستقل ، وينجهان إثر ذلك اتجاهين متضادين ، احدهما : إلى خارج ذات الإنسان ، يقوم بعملية نقل الأفكار والمشاعر . والآخر إلى داخل ذات الإنسان حيث يشكل طبيعة التفكير ونوعيته ، وكمحصلة لهذين الهدفين اللذين ينبعثان من ذات الإنسان ينشأ الهدف الثالث . وهو الهدف الاجتماعى والترابط الإنسانى والتفاهم البشرى . (١٧)

وقد لخص العالم العلامة « اولبرت » وظائف اللغة الاجتماعية فقال :

١ ـ إنها تجعل للمعارف والأفكار البشرية ، قيما اجتماعية ، بسبب استخدام المجتمع للغة بقصد الدلالة على أفكاره وتجاربه .

٢ ـ وأنها تحتفظ بالتراث الثقافى والتقاليد لاجتماعية جيلاً بعد جيل .

٣ ـ وأنها باعتبارها وسيلة لتعلم الفرد ، تعينه على تكييف سلوكه ، وضبطه حتى يلائم هذا السلوك تقاليد المجتمع وسلوكه .

٤ ـ وأنها تزود الفرد بأدوات التفكير ، وما كان المجتمع البشرى يصير إلى ما هو عليه الآنة بدون التعاون الفكرى ، لتنظيم حياته . ولا يتأتى هذا التعاون الفكرى إلاّ بالتفاهم وتبكدل الأفكار بين أفراد المجتمع والوسيلة العملية الميسورة لهذا التبادل والتفاهم ، هى لغة الكلام وبدونها ينحط التفاهم إلى مستوى التعبير عن المدركات المحسوسة والانفعالات الأولية (١٨)

فاللغة أهم مظهر لوجود الجماعة ، والمحافظة على كيانها ، وإذا تدرجنا إلى مستويات المجتمعات الحضارية نجد أن اللغة عنصر ضرورى لبقاء وتماسك وحدات هذا المجتمع ، فوحدة الغايات والمبادئ تدعوة إلى البحث عن دلالة شاملة للأشياء والأفعال .

وعناصر الوجود المختلفة تتجسد فى صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشىء أو الفعل . وبذلك يلعب اللفظ اللغوى دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة أفراد مجتمع اللغة الواحدة ..

فاللغة باعتبارها شرطاً ضرورياً لتماسك المجتمع إنما تقع فى كونها من جهةٍ ضرباً من السلوك البيولوجى الخصيص بأدق المعانى ، ناشئا تلقائيا من المناشئ العضوية الأولى ، وفى كونها فى الوقت نفسه من جهة أخرى تضطر الفرد الواحد من أفراد الناس ، أن يلتزم بوجهة نظر سائر الأفراد الآخرين وأن ينظر إلى الأمور وأن يجرى عليها البحث . من زاوية لا تقتصر على فرديته الذاتية وحدها ، بل تكون مشتركة بينه وبينهم باعتبارهم شركاء أو أطرافاً متعاقدة ، إن شئت فهى مشروع مشترك ـ لا شك ـ قد يكون عنصراً من عناصر الوجود الفعلى الذاتى هو الموجه ، والهدف لنشوء اللغة ، ولكنة الذى لا شك فيه أيضاً ، أنها تهم أول ما تهم شخصاً آخر هو المستمع ، أو أشخاصاً آخرين يوجه إليهم المتكلم الحديث ، فوسيلة التفاهم بين المتكلم والمستمع تقيم شيئا مشتركاً ، ومن

ثم بمقدار ما يكون للغة من هذا الاشتراك تصبح عامة وموضوعية . (١٩)

وإذا أردنا أن نعرف اللغة على ضوء تحديد ماهيتها ، فإننا نجد ذلك فى منتهى الصعوبة ، ولو تحقق الوصول إلى تعريف جامع مانع ؛ فسنجد أننا انتهينا إلى نص ، لا يمكن أن يكون تعريفاً أبدا ؛ لأن تعدد مظاهر اللغة ، من صوتية إلى كتابية ، إلى إشارية حركية ، إلى إشارية ضوئية ، إلى لغة باللمس على طريقة المكفوفين ، إلى غير ذلك ، لا بد أن يفرض على نص التعريف الذى نحاوله أن يطول حتى لا يعود تعريفا إذ يصبح وصفاً مسهباً لعدة أمور كل منها لغة ، ويبقى بعد ذلك أن يلجأ العلماء فى تعريف اللغة إلى بيان وظيفتها . (٢٠)

وقد قال فى محاولة التعريف بعض العلماء : إن اللغة وسيلة لإيضاح الأفكار ، وقد رد العالم « تاليران » على ذلك ، بأن اللغة وسيلة لإخفاء الأفكار لا لإيضاحها .

وقد قال علماء آخرون : إن اللغة وسيلة للتعبير ، وقد اعترض على هذا التعريف بأن المرء قد يتكلم إلى نفسه أحياناً ، وحتى لا يكون بحاجة إلى التعبير عن افكاره ، إذ يكون قد عرفها فعلاً وأدركها إدراكاً أعمق مما تستطيع كلماته أن تعبر عنه .

وقد قال بعض العلماء : إن اللغة إفراز حركى ضرورى للفرد ، وصالح لأن يكيف بالكيفيات الاجتماعية وبهذا يمكننا أن نفسر كلام المرء إلى نفسه وكلامه إلى صاحبه .

وقال « هنرى وولاكروا » اللغة هى دالة الفكر .

والحقيقة أن اللغة فى عمومها ذات وظيفة هامة جدا ، يمكن أن تلخص فى أمرين : ـ

١ ـ أمر فردى : هو قضاء حاجة الفرد فى المجتمع .

٢ ـ أمر اجتماعى خالص : هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية .

فأما بالنسبة للشق الأول من وظيفة اللغة ـ فواضح أن طبيعة التخصص تبدو فى وظيفة كل فرد ، بحيث لا يمكن أن يكون خبازا ونساجاً وحداداً ونجاراً وصياداً فى وقت واحد .

ومن هنا كان على الفرد أن يعتمد فى أموره على غيره من أصحاب هذه المهن وأن يتصل بهم . لقضاء حاجاته ولا سبيل إلى هذا الاتصال ، ولا إلى قضاء الحاجات ، إلاّ بواسطة التفاهم ، ولا بد للتفاهم من لغة ، ولو راقب المرء نفسه يوماً واحداً فى حقل الاستعمال اللغوى ، لرأى كيف يعتمد إلى حد كبير فى وجوده ، على وجود اللغة ، بل إن مصالح الإنسان ، قد تتوقف على حسن استخدامه للغة ، لا على مجرد الاستخدام .

وأمّا الشق الثانى من وظيفة اللغة : وهو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة إجتماعية فإن اللغة أصل وجذر لكل ما يمكن أن نتصوره من عوامل تكوين المجتمع ، كالتاريخ المشترك ، والدين المشترك والأدب المشترك ، والفكر والإحساس والإرادة والعمل المشترك ، إذ لا يقوم شيء من ذلك

دون اللغة وكيف يمكن تصور تاريخ بلا لغة . أو فكر بدونها أو إحساس لا يترجم عنه بها . بعد أن يتم تكوينه بواسطتها . أو إرادة تقوم بغيرها . أو عمل يتحقق بعيداً عنها . إن الشركة فى كل أولئك هى الحياة الاجتماعية . ولا تتم هذه الشركة بدون اللغة . (٢١)

ومما يذكر أن أنظار العلماء والباحثين اختلفت فى تعريف جامع مانع للغة طبقاً للمناهج التى يدرسونها . ولذلك نرى فريقاً يعرفها على أساس عقلى أو نفسى . ويمثل هذه المدارس ذلك التعريف الذى يقول : إن اللغة استعمال رموز صوتية . للتعبير عن الأفكار . ونقلها من شخص إلى آخر . ومن مؤيدى هذه المدرسة العالم الأمريكى : سابير .

وينظر علماء المنطق والفلسفة إلى اللغة باعتبارها الوسيلة للتعبير عن الأفكار . فيقول الاستاذ « جفونز » فى كتابه « مبادىء دروس المنطق » إن للغة ثلاث وظائف : أ ـ كونها وسيلة للتوصل . ب ـ كونها مساعدا آليا للتفكير . جـ ـ كونها أداة للتسجيل والرجوع .

وينظر علماء المجتمع إلى اللغة باعتبكر وظيفتها فى المجتمع . فيعرفها العالم اللغوى الأمريكى « ادجار ستيرتفنت » بأنها « نظام من رموز عرفية بواسطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة » .

ومن التأمل فى هذه المجموعة من آراء العلماء . يتبين أن تعريف علماء النفس والمنطق . يهدف إلى ناحية واحدة لا يتفق والمطلوب من اللغة فى المجتمع الانسانى . لأنها لا تقف عند حد التعبير عن الأفكار . وتوصيلها إلى الأذهان كما يقول علماء المنطق . لأن ذلك يقصر وظيفة اللغة على طبقة من الناس وهم أهل الفكر . حال اشتغالهم بأمور فكرية .

ولا يمكن أن يقال إن اللغة أداة لنقل الأفككر . وإنما هى وسيلة للتعاون والترابط بين أفراد المجتمع . فإننا نتبين كثيراً من النكس . يتكلمون فى موضوعات . وليس يعنيهم نقل أفكارهم إلى غيرهم وإنما يكون القصد من حديثهم الترفية والتسلية . أو النظر إلى أمور تخصهم فى إدارة شئونهم .

وبذلك يبدو أن رأى علماء المجتمع بتعريفها تعريفاً يتناسب مع وظيفتها فى المجتمع هو خير ما تعرف به اللغة . وإذا كان ذلك صحيحاً . فينبغى أن نشير إلى تعريف الأقدمين للغة وهو أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . (٢٢)

وهذا التعريف ذكره الجرجانى فى التعريفات . وابن جنى فى الخصائص وابن منظور فى اللسان . ومن الملاحظ أن هذا التعريف . قد تمشى مع وجهة نظر علماء المجتمع تمشياً دقيقاً . لأن الأصوات . ما هى إلاّ الرموز الصوتية التى تنبىء عن مدلولات خاصة للتعبير عما يحتاج إليه الانسان فى حياته سواء كان احتياجاً عاديا كشئون الناس . فى حياتهم المتمشية مع احتياجهم فى كل أوقاتهم . أم كان احتياجياً ضرورياً كاحتياج الباحث للتعبير عن الأفكار القائمة بنفسه . لتوصلها إلى أذهان الدارسين .

وأن اللغة ذات أثر قوى فى حياة المجتمع الإنسانى ، لأنها السبيل إلى فهم الأشياء المحيطة بالناس ، والطريق لارتباط أفراد المجتمع بعضهم ببعض والموصل للأفكار القائمة بالأذهان والمهيئة لرقى الأمم فى شتى نواحيها . (٢٣)

وقال العالم « جون لونز » الوجود البشرى ملتحم باللغة . فاللغة ظاهرة إنسانية إجتماعية ، تصحب سلوك الناس فى كل لحظة ، وترافق المجتمعات فى أطوارها التاريخية المتلاحقة فيصيبها ناموس التغيير الحتمى الذى يجعلها أداة صادقة للتعبير ، باللفظ والرمز والإيحاء ، عن حياة المجتمعات العقلية والحسية ، ومعياراً دقيقاً ، لرقيها أو انحطاها فى ميدان الثقافة والعلم والحضارة .

واللغة لذلك لا تعرف التحجر ، وهى قادرة على العمل ، قدرة كاملة وهى لا تفتأ تتغير شكلا ومبنى ، تتغير حروفها ، وأصواتها أو صيغتها وبناؤها ، أو من ناحية معناها ، فقد تنقل الكلمة من معنى إلى آخر أو تضيف إلى معناها معنى آخر جديد دون أن تترك الأول .

وأن تطور لغة « ما » مرتبط بتطور الأقوام التى تنطق بها ، واللغة والتطور عنصران مترابطان ، وهما سمة المجتمعات منذ أقدم العصور ، ولا سبيل إلى تفضيل لغة على أخرى ، وإنما يكون التفاضل بين الوسائل المتبعة لتنمية اللغات وإغناء تراثها التعبيرى .

الأمة البدائية حتماً لغتها بدائية ، وغير مصقولة ، ومفتقرة إلى عديد من الألفاظ التى تؤدى المعانى الحسية والمجردة ، فيه لذلك تقتصر على التعبير عن تفكير هذه الأمة ووسائلها الثقافية المحدودة .. وكلما ازداد تفكير المجتمع اتساعا ، وثقافة ونمواً . تطورت لغته وازدادت قدرتها على التعبير ، وإعطاء كل سمة لفظاً مناسباً .

إن اللغة تمنح الإنسان بالاضافة إلى وراثته البيولوجية ، خطاً آخر للاستمرار ، يجعل الثقافة وتراكم المعرفة أمراً ممكنا ، وقد أتاح العلم الحديث للغة ممكنات ووسائل متعددة للتعبير عن دقائق الاحكام العقلية فى صورها النظرية والتطبيقية . كما اتاح للألفاظ المعنوية المجردة انطلاقات جديدة مالت بها نحو وضوح أكثر ، وتخصيص أدق ، وأصبحت الكلمات بفضل تقدم الأدب والفنون غنية بالإيحاءات التى تعمقت أغوار النفس البشرية ، حتى صار عدد من ألفاظ اللغة : عالما من الاشارات والرموز المعبرة عن أدق المعانى المجردة وأعمقها . (٢٤ ٣) .

وشواهد الماضى ، وتجارب الحاضر ، فى الشرق والغرب تثبت فى وضوح ، أن اللغة على الاطلاق هى أقوى عوامل الوحدة والتضامن بين أهلها ، حتى لقد ذهب العالم اللغوى « ادوارد سابير » إلى أن اللغة هى على الأرجح ، أعظم قوة من القوى التى تجعل الفرد كائنا اجتماعيا ، ومضمون هذا الرأى ، أمران : الأول : أن اتصال الناس بعضهم ببعض فى المجتمع البشرى ، لا يتيسر حصوله بدون اللغة . والأمر الثانى أن وجود لغة مشتركة بين أفراد قوم أو أمة من شأنه أن يكون هو نفسه رمزاً ثابتا فريدا للتضامن بين أفراد المتكلمين بها . (٢٥)

وقال الفيلسوف « نشته » : إن اللغة تلازم الفرد فى حياته ، وتمتد إلى أعماق كيانه ، وتبلغ إلى أخص رغباته وخطراته . إنها تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوكنين . انها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالملأجسام ، وعالم الأذهان .

ولنتعمق فى مفهوم اللغة . فإذا هى أهم وأعز ما ملكته النفس البشرية من حيث جريانها فى عروق الإنسان مجرى الدم حتى أن كل تعد حيالها يعتبر تعديا حيال الشخصية الإنسانية ، وهناك من الفلاسفة علماء أجلاء ، حالوا تفسير اللغة باصطلاحات فلسفية دقيقة . فمن قائل : أنها ليست إلاّ مجموعة اختلقها الفكر البشرى ، وأمكن تعديلها حسب المبادئ الموضوعة من قبل . وكثير من علماء اللغة يرون أن نشأة اللغة وازدهارها راجع الى العواطف الإنسانية . وهذا هو أقرب إلى الصواب : لأن أول مدرسة يربى فيها الطفل هى : مدرسة الأمومة، وفيها يرضع الطفل من أمه اللغة ، كما يمتص خصائصها الذاتية تماما .

ويمتاز لسان الإنسان بقدرته على التعبير عن الاحساس والمشاعر ، تعبيراً ذا قوة ودلالة . والفكر الإنسانى له الأهمية العظيمة فى سبيل تقدم اللغة ونموها وازدهارها . فاللغة هى ألصق الأشياء بالانسان ، وأعسرها انفكاكاً عنه . وهى الرابطة التى تربط بين الانسان ومعانى الحياة ، والكون والمجتمع .

ولم يرض العلماء أن يفكر أبناء البلد الواحد بألسنة مختلفة . فتاقت نفوسهم الى إعتماد لغة قوية واحدة . يستعملها الجميع فى التفاهم بغية التقريب ، ومنعا للبلبلة ، وتوزع المشارب .

وقريب من هذا ما رَنا إليه بعض المفكرين من اختيار عدد محدود من اللغات ذات الأهمية السياسية الكبيرة أو استعمال لغة واحدة طبيعية أو مصطنعة فى المؤتمرات العلمية .

ومن المحاولات الجريئة ما ظهر من محاولات لما يسمى باللغات العالمية كلغة ثانية . يتعلمها جميع سكان العالم الذين يحتاجون للاتصال مع الآخرين ، كصنيع محى الدين بن العربى ، حين أراد صنع لغة خاصة لأتباعه ومريديه باسم « بليبان » ومعناها لغة المحى . وهى خليط من العربية والفارسية . يتفاهمون بها فيا بينهم ومع طاعة المريدين وكثرتهم ونشاطهم . إلا أن المحاولة لم يكتب لها النجاح . (٢٦)

ومن أشهر المحاولات محاولة « الاسبرانتو » التى نال بها العالم الروسى « لازاروس زامنهوف » سنة ١٨٨٧ م وقد لاقت رواجا وحماسا ودعت إليها وسائل الاعلام . وساعد على تقبلها انها صوتية « لكل حرف صوت واحد » وليس فيها حروف ميتة وقواعدها قليلة ، واشتقاقها بسيط . ولها لواحق صناعية ، وهى مختارة من اللغات الأوروبية .. وقد فشلت هذه اللغة بعد مدة (٢٧) . وصدق الله العظيم حيث يقول « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين (٢٨) .

واللغات فى تصنيف بعض علمائها ، تنقسم على حسب الأجناس والسلالات التى تتكلمها . ولكنه تقسيم يعتريه الاختلاط ، لاشتراك الأمم فى لغة واحدة ، أو عائلة لغوية واحدة ، مع انتمائها الى أصول متباعدة . وخير منه أنةتقسم اللغات على حسب تكوينها وتكوين قواعدها ، وعوامل التعريف ى مفرداتها وتراكيبها . وهو تقسيم يضبط الفوارق ضبطا كافيا للموازنة بينها والمقابلة بين عوامل الفهم وكلاختيار ، وعوامل التقليد والأضطرار ، فى تراكيبها وتعبيراتها . .

وتنقسم اللغات من حيث التكوين إلى لغات النحت ، ولغات التجميع ، ولغات الاشتقاق : فلغات النحت : هى التى تتكون فيها الاسماء والأفعال والصفات ، بادخال المقاطع الصغيرة عليها أو الحاقها بها ، وتسمى لغات النحت أحياناً باسم اللغات الغروية فى اصطلاح الأوروبيين لأن مفرداتها تلصق لصقاً لتنويع معانيها ، كما تلصق أدوات البناء بالغراء .

ولغات التجميع هى : اللغات التى تعتمد على اللصق ، كما تعتمد عليه اللغات الغروية ، ولكنها تعتمد قبل ذلك على « التنغيم » لتنويع المدلول ، والتمييز بين الصفات والظروف ، وبين الأوقات والأجناس ، وغيرها من معانى الجمع وكلتثنية والإفراد ، وقد تسمى لغات التجميع أحيانا باللغات المنفصلة : لأن الكلمة فيها تنفصل بصيغة واحدة ، ولا تتغير حروفا انما يتغير المعنى بضم صيغة منها ، إلى صيغة أخرى ، بترتيب متبع أو بغير ترتيب يلتزم فى جميع الأحوال ، ومن فروع هذه اللغات ما تتكون اسماؤه وأفعاله من جملة تتألف من عدة مقاطع وأجزاء ، وتسمى لذلك بلغات التركيب الكثيرة .

أما لغات الاشتقاق ، فهى اللغات التى يعم فيها الفعل الثلاثى فى كل مادة ، وتجرى قواعد الصرف فيها على المخالفة بين الأوزان بحسب معانيها ، ويكثر فيها اختلاف الحركة ، فى أواخر الكلمات اتباعا لموقعها من الجملة المفيدة .

ويشيع النحت فى اللغات الهندية الجرمانية ، كما يشيع التجميع فى اللغات المغولية ، ولغات القبائل الامريكية الأصيلة أما الاشتقاق : فهو من خصائص اللغات السامية ، وتكاد اللغة العربية من بينها أن تنفرد بعموم لاشتقاق وكطراده ، مع تحريك أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيدة .

وربما اتفق اللغويون على قواعد عامة ، عملت فى تطور هذه اللغات جميعا ، ولم تختص بها لغة دون سائرها ، ومن هذه القواعد العامة أن الكلمات الانفعالية التقليدية أسبق من الكلمات الارادية الفكرية ، ويريدون بالكلمات الانفعالية ما يصدر عن الإنسان عفواً من الأصوات والصيحات التى تعبر عن الفرح أو الفزع ، او الدهشة ، وما تكون الكلمة منه أحياناً من قبيل المحاكاة الصوتية كاسم البلبل ، والكوكو ، وألفاظ الدق ، وكلقطع والوسوسة ، وما جرى مجراها .

ويريدون بالكلمات الإرادية الفكرية ، كل ما يقصده المتكلم ، ويجرى فيه على القياس والاستعارة واطلاق القاعدة الواحدة على المتشابهات لفظاً ومعن .

وأكمل اللغات على سنة التطور والتقدم تلك اللغات التى انتظمت قواعدها الصوتية ، وقواعدها الصرفية ، وقواعد التركيب والعبارات .

ثم يضاف إلى الظواهر الصوتية ، فى قياس تطور اللغات ، ظاهرة التمييز والتخصيص فى الصفات إجمالا وفى المفردات على التعميم ، كالتمييز بين المذكر وكلمؤنث وكلجماد ، وبين المفرد والمثنى والجمع ، وبين جمع الكثرة ، وبين الصفات العارضة والصفات الملازمة ، وهى جميعا من المزايا التى تمت للغة العربية على مثال لم تسبقها إليه لغة من لغات الحضارة .

فقيام اللغة على القواعد الفكرية ، دليل يثبت لها السبق على لغات الارتجال الجزاف ، وفى وضع الكلمات ، سواء بالمحاكاة الصوتية ، أو بالتكرار على غير قياس ، وشيوع القاعدة فى فعل كل مادة ، وفى الاسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير فى التعبير ، وتعميمه على الأحداث والمعانى غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة ، ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وإمكان الجمع بين الوضع الحقيقى والوضع المجازى فى كلام المتكلم ، لتوسيع المعانى وبناء الكلمات على المضاهاة بين المدلولات .(٢٩)

وعلماء اللغات : صنفوا اللغات ، وبوبوها ، وحللوها ، فوجدوا بينها أشباهاً ، استطاعوا بناء عليها أن يصنفوها ثلاثة أصناف على قدر الامكان وهى صنوف ليست متميزة بعضها عن بعض كل التمييز ، ولا منفصلة كل الانفصال .

١ ـ الصنف الأول : اللغات العازلة : وهى لغات فيها الكلمة الواحدة غير متغيرة لا تشتق منها كلماتها : إنها إسم وفعل وصفة وظرف فى آن واحد ، وأكثر هذه اللغات كلماتها ذات مقطع واحد . وأكثرها عندها للكلمة الواحدة أكثر من صوت واحد ، تنطقها نغمة عالية ، أو تنطقها نغمة منخفضة ، أو تنطقها متطاولة ، أو تنطقها متقاصرة ولكل من هذه الأنغام لكلمة الواحدة معنى بذاته .

٢ ـ الصنف الثانى : اللغات اللاصقة : وهى التى تؤلف الكلمات فيها باللصق ، فيتغير معناها ويتبدل ، واللصق يكون بإضافة مقطعين بعضا إلى بعض ، فتكون كلمة لها معنى جديدا ، أو قد تصنع الكلمة من أكثر من مقطعين ، وهذا الصنف اللاصق من اللغات هو أكثر الصنوف الثلاثة فى اللغات عددا ، وهو يتضمن اللغة السومرية القديمة ولغة اورال والقوقاز ، واللغات الدرافيدية واليابانية والكورية ولغات المحيط الهادى واللغات الأفريقية ، واللغات الوطنية لمواطنى أمريكا الأصليين .

٣ ـ الصنف الثالث : اللغات المتصرفة : وهى اللغات التى تدخل كلماتها التصريف ، فالكلمة يتغير بناؤها ، فتدل على جديد ، كتب ، يكتب كاتب ، مكتوب ، كتاب ، كتب ، وما إلى ذلك ، يدخل فى هذا الصنف اللغات الهندية الأوروبية ، وكذا اللغات السامية ، ومنها اللغة العربية وكذا الحامية .

واللغات من حيث مرونة نظام ترتيب الكلمات وعدمه تنقسم الى ثلاثة أصناف :

١ ـ اللغات الحرة : وهى اللغات التى لا يخضع نظام ترتيب الكلمات فيها إلى قوكعد لازمة . كالأغريقية واللاتينية بل تحدها قوانين الاسلوب والمفاضلة بين أسلوب و آخر . وتخصيص أسلوب معين بمجال من القول . لا يصح معه استعمال غير هذا الاسلوب . أوهذا الترتيب . وعليه فمثل هذه اللغات لا تخضع لنظام لازم فى ترتيب الكلمات لتأليف الكلام . وإنما يفاضل بين نظام ونظام من حيث البلاغة . ويخصص نظام بمجال يختلف عما يخصص للمجال الآخر من دون أن تكون هناك قواعد لازمة .

٢ ـ اللغات المستقرة : وهى اللغات التى تتبع فى ترتيب الكلمات . لتأليف الكلام نظاما مستقرا كالانجليزية والفرنسية استقراراً يكاد يقرب من الجمود فليس للمتكلم بإحدى هاتين اللغتين أن ينقل الكلمة من مكانها المعين فى الجملة . واللغات غير المعربة غالبا تتصف أكثر ن اللغات المعربة بصفة الاستقرار فى نظام ترتيب الكلمات ليمكن تبين العلاقة والصلة بين الكلمة والتى تليها فللفعل موضع . وللفاعل موضع آخر . وللمفعول ثالث . وهكذا .

٣ ـ اللغات الوسط : وهى اللغات التى لا يكون نظام ترتيب الكلمات فيها حراً كما فى اللغة الأغريقية واللاتينية ولا مقيداً تقييداً ثابتا . كما فى اللغة الانجليزية والفرنسية . ومن هذه اللغات الوسط اللغة العربية : إذ أن نظام ترتيب الكلمات فيها على ثلاثة أضرب . أحدها ما عينه الواضع وحكم به على سبيل الوجوب . فيعد مخالفه مخطئا . ويخرج الكلام الخالى من مراعاته عن الاسلوب العربى كتأخير التمييز عن المميز . والمضاف إليه عن المضاف . ثانيها : ما عينه الواضع أيضا . ولكنه قضى به على وجه الاصالة واعتبار ما هو الأولى . ولا تخرج العبارة بمخالفته عن حدود العربية كتقديم اسم من صدر منه الفعل . على اسم الذات الواقع عليها . والبحث عن أسرار ما كان من قبيل هذين الضربين مثبوتا فى مدارج علم النحو . ثالثها : ما لا يقتضيه الوضع على التعيين وجعل أمره دائرا على رعاية ما يناسب المقام وتعينه بحسب التراكيب المخصوصة موكول إلى ألمعية المتكلم . وحسن تصرفه . كتقديم المفعول على الفعل لإفادة اختصاص به . وعدم تعلقه بغيره والبحث فى هذا القسم ووجوهه المناسبة مندرج فى موضوع علم البيان (٣٠) .

وإذا أردنا أن نعرف أصول اللغات . وهل هى من أصل واحد . أم من أصول متعددة . وجدنا ذلك فى منتهى الصعوبة . فالعلم لم يكتشف للآن أصول اللغات الأولى ولم يعرف أى الأصول من اللغات التى توصل إليها أصل : إلا أنه مما لا يسوغ انكاره أن العلم لم يعرف الكلمة الأخيرة فى هذا الموضوع ولعله يأتى بجديد يوصل الى قديم . ممتدة جذوره فى الماضى السحيق .

ولا شك أن جذوراً نشأت منها اللغات . لكن التاريخ طواها وهى اليوم ترقد فى أعماقه يعجز انسان عن استشفافها وليس للانسان إلاّ الحاضر من هذه اللغات . وهذه اللغات الحاضرة إنما هى

أنسال تلك اللغات البعيدة العابرة والولد كثيراً ما يحمل من أجداده سمات تدل عيهم مهما طال الزمن ، بل كل الكائنات الحية تحمل الخصائص الذاتية لآبائها تبعاً لقانون الوراثة مع موافقة قانون التطور العام ، كذلك اللغات تطورت مع الزمن تبعا للقانون العام إلاّ أن الوراثية تدل على الأصل أو ترشد إليه .

واللغة تراث اجتماعى يرثه الجيل اللاحق من الجيل السابق ، فهى تراث اجتماعى تقليدى موروث ، يرثه ويتطبع عليه ، ويحاول أن يسير على وفقه كل متكلم لأية لغة أو لهجة . (٣١)

ولما **كانت اللغات هى** : مجموعة من الرموز الأصطلاحية من حيث المردات ، ومجموعة من القواعد النحوية الاتفاقية من حيث ضبط تلك المفردات ومجموعة من النظم الاتفاقية التقليدية أيضا من حيث تأليف وتركيب تلك المفردات ، فهى لهذا لا تخضع لمنطق عقلى عام : لأنها اصطلاحية ، اتفاقية ، تقليدية موروثة أو بتعبير آخر : أن اللغة من الأمور الاعتيادية والأمور الاعتيادية لا يشترط فيها أن تكون عامة بين الناس جميعا إلاّ إذا اتفقوا على ما هو معتبر ، أما إذا فقد عنصر الاتفاق اختلف الناس فيما هو معتبر .

وحيث أن اللغة من الأمور الاصطلاحية الاتفاقية التقليدية ، غير المتفق عليها بين الناس ، اختلفت اللغات ، فكان لكل لغةٍ مفرداتها الخاصة بها وقواعدها ونظمها ، واللغة لشدة التأثر بها ، والتطبع عليها ، تبدو لمتكلميها وكأنها من الأمور الطبيعية ، ويبدو ما يخالفها شاذاً غريبا لا يقبلونه إلاّ فى حدود معينة . (٣٢)

وحياة الإنسان لا تستقر على حال : علومه تتطور ، وأفكاره تتسع وحضارته تتقدم ، وحياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هى الأخرى تتطور وتتقدم وتتعقد ، وهذا يعنى انه يجد فى حياة الانسان الجديد من المعانى التى تتطلب وضع الفاظ لها ، لهذا يلجأ الإنسان إلى لغته ، بمفرداتها وقواعدها يستعين بها ، يضع لهذه المعانى ألفاظاً ، أو ينقل ألفاظاً من معانيها التى وضعت لها ، إلى هذه المعانى الجديدة لتدل عليها ، فإن لم يجد الإنسان فى لغته ما يسعفه لجأ الى الاقتراض من لغات أخرى ، وقد يصقل ما اقترض بمصقل لغته لينتظم فيها وكأنه منها ، ولا يقتصر الأمر على الألفاظ بل يتعداها الى الأساليب : فهى الأخرى تنمو وتتطور فإذا بأساليب لا تعرفها اللغة فى زمانها السابق ، تدخل فى زمان لاحق ، كل ذلك لأن حياة الانسان تنمو وتتطور ، واللغة أداة ووسيلة ، فلا بد لها من أن تساير تطور الانسان ، وإلاّ ماتت لأن حياتها بوفاتها .

والذى يرجع منا إلى صورته وهو طفل ، وصورته وهو شيخ طاعن فى السن ، وصورته وهو شاب أو صبى أو كهل ، يرى التغير والتبدل الذى أصاب كيانه واضحاً فيما تنطق به الصور ، ولكن الإنسان لا يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل ، بل يلحظ نفسه وهو فى يومه ويعلق فى ذهنه عن بعضه لا كله ، واللغات شأنها شأن الانسان ، فهى تتطور وتتغير وتتبدل ، وكل هذا يحدث فى البيئة

اللغوية ، فى الأمس الغابر واليوم الماثل .

وعمر اللغة لا يقاس بعمر الانسان ، إذ منها ما بين مولدها وعصرنا المئات من السنين فنصفها بأنها حديثة وما هى بالحديثة . وأخرى ما بين مولدها وعصرنك الألوف من السنين ونصفها بأنها قديمة ، وما هى بكلقديمة ، لأننا إذا رجعنا إلى أصولها أو إلى أصل الأصول كان عمر اللغة المئات من آلاف السنين ، بل الملايين منها ، فهل يمكن أن يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل ، فى هذا الامتداد الزمانى ؟ الحقيقة لا . أما لماذا ؟ فلأسباب :

إن اللغة الأم لم تخلف لنا من الآثار ما يدل عليها وبتطور الانسان تطورت لغته إلى لغات وكان التطور تدريجياً ، فنسى الإنسان أمس لغته ، وعاش حاضرها ، فانقرض وعفى الزمن على ما انقرض فنسيته الأجيال ، أما بالنسبة لأصول لغات عالمنا الحديث فالتى ولدتها أم وكانت ولادتها حديثة عرف أصلها أى أمها كاللغات المولودة من اللاتينية ؛ أما ما كانت ولادتها قديمة ، فقد نسيت أمها .

ومن اللغات ما دونت مفرداتها وقواعدها ونظمها اللغوية فى الأسفار ومنها ما خلف أمسها آثاراً فأمكن أن نتبين بعض ـ لا كل ـ صور تطورها وتغيرها وتبدلها . ومنها ما لم يدون فى الأسفار . ولم يخلف أمسها الآثار ، فلا نعرف عنها إلاّ صورتها الحاضرة إن لم تكن انقرضت ، ونعود الى لغات العالم التى تحتفظ بصور تغيرها وتبدلها وتطورها ، ونسأل هل تعطى هذه الصور واقعاً يطابق واقع اللغة ، وهى تتطور وتتغير وتتبدل ، فى الامتداد الزمانى لهذا التطور والتبدل ؟ الحقيقة لا : لأن هذه الصور نسبية تماماً كصرة الشيء ، لا تعنى أنها حقيقة الشيء بكل كيانه ومقوماته وصفاته ، فكم من الألفاظ بادت ، وكم من الأساليب عفى عليها الزمن ، وكم من القواعد والنظم لم تصل اليها أجهزة المصور اللغوى فأنساها الزمن .

وسؤال آخر يقفز إلى الذهن ويتطلب الجواب ..

ما هى أسباب النمو والتطور والتبدل والتغير والانقراض فى اللغات ؟ والجواب على هذا أننا نجد أهم تلك الأسباب فيما يأتى :

١ ـ النمو والتطور والتغير والتبدل ، فى حياة الانسان نفسه ، وهذا يدفعه إلى أن يضع لما يجد من جديد ، ألفاظاً وأساليب ونظماً لغوية .

٢ ـ نقل الألفاظ الموضوعة للمعانى ، فتطاول الزمان يدعو إلى وضع ألفاظ جديدة .

٣ ـ من المعانى ما يرتبط بعصر من العصور ، فإذا إنقضى العصر لا تكون هذه المعانى من التراث الفكرى والحضارى للجيل اللاحق فتهمل ثم تنسى بإهمال ألفاظها .

٤ ـ عدم وفاء اللغة بحاجة الانسان إلى التعبير والتفاهم وحفظ ونقل وتخليد تراثه الفكرى والعلمى ، والأدبى ، وإزاء ذلك يضطر الانسان إلى أن يغير ويبدل أو يهجر لغته .

٥ ـ التحريف والتغيير والتبديل فى اللغة ، قد يستقر فى دلالته فيخرج الأصيل حتى ينسى .

٦ ـ ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية ، اتفاقية غير مستقرة لهذا قد تلد لغات أو لهجات ، وقد تستقر هذه اللغات أو اللهجات المولدة ، وتهجر اللغة الأم .

٧ ـ تسرب الدخيل والمولد إلى اللغة مع عدم الحاجة إليها ، وبمرور الزمان قد يتغلب الدخيل والمولد على الأصيل .

٨ ـ تجاور الأمم واختلاط الشعوب سبب من أسباب تطور اللغة ونموها فتقترض اللغة من لغات الأمم والشعوب ما تقترض مما هو ليس موجوداً فيها .

٩ ـ تعرض الأمم للغزوات والنكبات يعرض أحياناً الأمم المغلوبة إلى فقدان لغتها عندما تفرض الأمم الغالبة لغتها عليها ، أو تتأثر الأمم المغلوبة بلغة الأمم الغالبة .

١٠ ـ انقراض الأمم والشعوب ، يؤدى إلى انقراض لغاتها ، لأن اللغات ترتبط بمتكلميها فإذا انقرضوا انقرضت .

١١ ـ تشتت الأمة والشعب يؤدى إلى تأثر لغتها أو لغته بلغات الأمم المخالطة مما يؤدى إلى نسخ لغة الأمة المشتتة .

١٢ ـ بعض اللغات تمتاز بسهولة قواعدها ، ومرونة أساليبها ، وهذا قد يدفع بعض الأمم إلى هجر لغاتها إذا كانت قواعدها وأساليبها شديدة التعقيد .

والباحث فى الدراسات اللغوية يجد أن نواحى التطور والتغيير اللغوى تجد فيما يلى :

١ ـ التبدل الصوتى للحرف والكلمة : وذلك بأن يتغير صوت الحرف وعلى سبيل المثال حرف الجيم العربى يلفظ فى لبنان وسوريا بصوت يختلف عنه فى مصر وفيهما عنه فى العراق ـ وكذلك فى مصر نفسها حرف الجيم يلفظ فى الصعيد بصوت يختلف عنه فى القاهرة ، وكذا حرف القاف والضاد ، أو أن يتغير صوت الوحدة اللغوية .

٢ ـ توسيع القاعدة اللغوية : وذلك بأن يخضع أهل اللسان ما يقترضونه لقواعدهم اللغوية ، فيجرون عليه ما تجرى عليه قاعدة لغتهم ، أو توسيع القاعدة لتشمل الشاذ غير الخاضع لها .

٣ ـ اقتراض المفردات : وذلك حين تعجز قواعد اللغة عن الوفاء بوضع مفردات جديدة ، أولا يكون ذلك عن عجز ، وإنما تكون المفردات الأجنبية قد استقرت بحيث لا يمكن إحلال مفردات لغوية موضوعة بموجب القواعد اللغوية للغة .

٤ ـ استعارة أساليب أو تراكيب لا تعرفها اللغة : ومن أمثلة ذلك فى اللغة العربية : ذر الرماد فى العيون ، وعاش ستة عشر ربيعا ، ووضع المسألة على بساط البحث ، ولا جديد تحت الشمس ، وساد الأمن فى البلاد .

ومن أمثلة ذلك أيضا : الاصطلاحات الفنية والادارية : كهيئة المحكمة وتشكيل المحاكم ، وانعقدت المحاكم ، وتعريفة الرسوم ، واللاسلكى واللا نهائى .

٥ ـ تبدلات فرعية مختلفة : كالنقل والارتجال والاستعمال المجازى . والنحت على غير قياس أو سماع .

ومن اللغات ما وصف بأنها حية ، ومنها ما توصف بأنها ميتة ، والميتة هى اللغة التى تشتت الشعب الذى يتكلمها فخالط أمماً وشعوباً مختلفة اللغات ، وكان أن مسخت لغة الشعب المشتت . وقد يطلق وصف الميتة على لغات تحتفظ بشخصيتها وذاتيتها و يتكلمها الملايين . وهذا الذى هو يدعونا إلى التساؤل : ما هى المقاييس التى يقاس بها كون اللغة حية أو ميتة ؟

مما يجاب به على هذا التساؤل : أن العلماء يختلفون فى المقاييس التى تعتبر اللغة : لغة حية . وللاختلاف أسباب : فمن العلماء من يعتبر المجتمع هو المقياس ، فاللغة التى يرتضيها المجتمع بمفرداتها وقواعدها وأساليبها ونظمها ، هى اللغة الحية . لأن اللغة كما عرفها بعض الباحثين هى وسيلة للتعبير والتفاهم . وليست غاية . وللمجتمع أن يختار الوسيلة التى يرتضيها ويضيف العلماء إلى ما سبق شرطا آخر إذا توفر فى اللغة بالاضافة إلى ارتضاء المجتمع كانت اللغة لغة حية وهو أن تكون اللغة سهلة فى قواعدها مرنة فى أساليبها ونظمها ، وعلى أساس هذا المقياس للمجتمع أن يغير ويطور ويبدل فى اللغة ما شاء إلاّ فى حدود ضيقة ؛ كأن يجرى تأليف وترتيب الكلمات وفق نظام ثابت ليؤدى الكلام المؤلف منها معناه العام .

ان الحياة تتطور وفى تطور مستمر ، واللغة ينبغى لها أن تساير هذا وهي وسيلة ، وللمجتمع أن يختار تلك الوسيلة ، ولا ينبغى لتلك الوسيلة أن تقيد المجتمع ، وتقف حجر عثرة أمام تطوره ، واحتياجاته .

وبعض العلماء لا يعتبر المجتمع هو المقياس ، بل يعتبر وفاء اللغة بحاجة الإنسان إلى التعبير والتفاهم ، وحفظ ونقل وتخليد آثاره الأدبية والفكرية والعلمية ، والعقيدية . هو المقياس .

فاللغة التي تفى بذلك لغة حية . ولا يسمح هؤلاء العلماء لأممهم أن يغيروا ، ويبدلوا ، ويطوروا فى لغتهم كيفما شاؤوا .. بل لا بد أن يكون التطور والتغيير فى اللغة يجرى على أساس من قواعدها ، وأساليبها اللازمة الاتباع .

وهؤلاء العلماء يربطون بين لغتهم وبين تراثهم العلمى ، والفكرى والأدبى ، والحضارى ، ويربطون بينها وبين عقائدهم ونظمهم وبينها وبين مشاعرهم وأهدافهم فى الحياة .

هوامش ومصادر

(١) المعرفة الجزء الثالث ص ١١ المملكة العربية السعودية .

(٢) الفيروز ابادى بصائر ذوى التمييز ج ـ ٤ ص ٤٣٤ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

(٣) الآية ٢٢٥ من سورة البقرة ، والآية ٨٩ من سورةالمائدة .

(٤) البيت للفرزدق كما فى النقائض طبع أوربة ص ٣٤٤ . وينظر أيضا تفسير الطبرى جـ ٣ ص ٩٩ .

(٥) الفيروز ابادى «بصائر ذوى التمييز» جـ ٤ ص ٤٣٤ .

(٦) الآية ٢٥ من سورة الواقعة . والآية ٣٥ من سورة النبأ .

(٧) الآية ٧٢ من سورة الفرقان .

(٨) الفيروز ابادى « بصائر ذوى التمييز » جـ ٤ ص ٤٣٥ .

(٩) النجف « مجلة » العدد ٦ ص ٤٧ . العراق .

(١٠) الدكتور نايف خرما « أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة » ص ١٦ ط الكويت .

(١١) المصدر السابق ص ١٧ وينظر الدكتور توفيق محمد شاهين فى كتابه : علم اللغة العام ص ٦ ط مكتبة وهبة بالقاهرة .

(١٢) احمد عبد الرحيم السايح . اللغة فلسفة وحياة . الاقلام ع ١٢ مجلد ٣ ص ٧٣ ط العراق . سنة ١٣٨٧ هـ

(١٣) اللسان العربى « مجلة » العدد ٣ ص ٥٤ ربيع الثانى ١٣٨٥ هـ المغرب الرباط .

(١٤) دعوة الحق . عدد رقم ٥ ص ٣٨ من السنة السادسة ١٣٨٢ هـ الرباط .

(١٥) سورة إبراهيم . الآية رقم ٢٤ .

(١٦) دعوة الحق ع ٥ ص ٣٨ السنة السادسة ١٣٨٢ هـ المغرب .

(١٧) اللسان العربى ع ٣ ص ٥٥ ربيع الثانى ١٣٨٥ هـ المغرب .

(١٨) عبد العزيز عبد المجيد اللغة العربية جـ ١ ص ١٩ ط القاهرة ١٩٦١ م .

(١٩) اللسان العربى عدد ٣ ص ٥٥ ربيع الثانى ١٣٨٥ هـ المغرب .

(٢٠) مجلة المجلة عدد رقم ١١٤ يونيه ١٩٦٦ القاهرة .

(٢١) الدكتور تمام حسان . مجلة المجلة ع ١١٤ القاهرة .

(٢٢) ابن جنى الخصائص جـ ١ ص ٣١ ط الهلال ١٣٣١ هـ القاهرة .

(٢٣) الدكتور ابراهيم نجا اللهجات العربية ط السعادة ١٩٦٥ م

(٢٤) اللسان العربى . العدد الأول ص ٢٨ سنة ١٣٨١ هـ المغرب .

(٢٥) الدكتور عثمان أمين فلسفة اللغة العربية ص ١٦ ط المكتبة الثقافية القاهرة .

(٢٦) الدكتور توفيق شاهين « علم اللغة العام » ص ٨ مكتبة وهبة .

(٢٧) المصدر السابق ص ٩ .

(٢٨) سورة الروم . الآية ٢٣ .

(٢٩) عباس محمود العقاد أشتات مجتمعات . ص ١١٥ ط دار المعارف مصر .

(٣٠) مجلة العربى . عدد رقم ٩٨ يناير ١٩٦٧ الكويت .

(٣١) النجف ع ٦ ص ٨ السنة الثامنة ١٩٦٨ العراق .

(٣٢) المصدر السابق .